

الرئيس القادم.. ودروس مصائر أسلافه

ربما لا يحتاج الرئيس القادم إلى تذكير بمصائر أسلافه الذين انتهى حكم أربعة منهم اعتقالاً واغتيالاً وحبساً ومحاكمة. فالمفروض أن يتأمل الرئيس الذى سيدخل قصر الاتحادية فى أوائل يونيو المقبل هذه المصائر الحافلة بدروس غنية.

كانت نهايات أربعة من بين خمسة رؤساء سابقين تعاقبوا منذ إعلان الجمهورية فى يونيو 1953 مؤلمة، رغم اختلاف مشهد النهاية بالنسبة إلى كل منهم. كان أولهم هو أسرهم إلى هذه النهاية. فلم يكن قد مضى على تولى محمد نجيب الرئاسة عدة شهور حتى تصاعد الصراع على طبيعة النظام السياسى الجديد.

وما إن حسم رئيس الوزراء حينها جمال عبدالناصر ومؤيدوه أزمة مارس 1954 لمصلحتهم، حتى أخذوا فى محاصرة دور نجيب ونفوذه قبل وضعه قيد الإقامة الجبرية شكلاً والاعتقال فعلاً منذ نوفمبر 1954 وحتى وفاته عام 1984. ورغم أن عبدالناصر، الذى أنهى عهد الرئيس الأول بهذه الطريقة، هو الوحيد الذى لم يكن مصيره مؤلماً، مازالت هناك شكوك بشأن ما أشيع عن موته مسموماً على سرير المرض فى سبتمبر 1970 رغم عدم وجود دليل يثبت ذلك.

غير أن نهاية الرئيس الثالث أنور السادات كانت هي الأكثر مأساوية، حيث أُغتيل وهو يرتدى بزة المارشالية أثناء عرض عسكري في 6 أكتوبر 1981، أى في اليوم الذى تعود أن يحتفل فيه بأهم إنجاز حققه خلال رئاسته.

ورغم أن عهد الرئيس الرابع حسنى مبارك كان الأطول حتى الآن، فقد كانت نهايته هي الأكثر دراماتيكية قبل أن يتكرر مشهدها مع بعض الاختلاف مع الرئيس السابق محمد مرسى. لم يصدق مبارك أن الغضب الشعبى بلغ فى منتصف العقد السابق مبلغاً يفرض إجراء إصلاح سياسى واجتماعى حقيقى. ولم يتخيل أن يزداد الغضب الشعبى يوماً بعد يوم فى غياب هذا الإصلاح.

ولذلك فوجئ مبارك بالثورة عليه، وهو الذى سخر من معارضيه قبل اندلاعها بأيام قائلاً «خليهم يتسلوا»، مثلما فاجأت ثورة أخرى محمد مرسى و«إخوانه» الذين ظنوا أنهم ورثوا «التركة» وأن الدعوة إلى مظاهرات فى 30 يونيو لن تؤدي إلا إلى خروج بضع آلاف من المصريين.

وتبدو هنا مفارقة تاريخية تتعلق بتشابه مصيرى مبارك ومرسى رغم أن عهد الأول كان الأطول فى حين أن الفترة التى قضاها الثانى تعد الأقصر إذ لم تتجاوز عاماً واحداً (أى أقل من نجيب الذى عُزل بعد سنة وخمسة شهور تقريباً). وتنطوى هذه المفارقة على دلالة بالغة الأهمية، وهى أن عدم استيعاب مرسى درس عزل مبارك بل استهانت به هو الذى جعله يلحق به بهذه السرعة.

فاستخلاص الدروس من التجارب السابقة هو السبيل إلى عدم تكرارها أو إعادة إنتاجها. وتفيد دروس هذه التجارب، وغيرها فى العالم، أن قدراً من

المناعة ضد غرور السلطة صار شرطاً لازماً لتوقع نهاية طيبة لأى حاكم. فهذه المناعة ضرورية لمقاومة شهوة السلطة وغوايتها، وما يقترن بها من ميل إلى التسلط والاعتماد على حلقة ضيقة من الموالين وأهل الثقة وصولاً إلى الانعزال عن الشعب وافتقاد القدرة على قراءة الواقع.

ويكفى قدر معقول من هذه المناعة للاقتراب من المقومات الأساسية للحكم الرشيد، حتى بدون الترفع الذى تميز به بعض الرؤساء فى الدول الديمقراطية الجديدة مثل فاكلاف هافيل أول رئيس لتشيكيا بعد انهيار الشيوعية، ولولا دا سيلفا الذى حقق إنجازاً تاريخياً فتح أمام البرازيل أبواب «نادى الكبار» فى العالم، وخوسيه موخيكا الذى يحكم أوروغواى الآن من بيته الريفى بدون حراسة تقريباً ويركب سيارته القديمة جداً طراز «فولكس».

وإذ تقف مصر اليوم فى مفترق طريقين للمرة الثانية خلال عامين، ربما يتوقف مستقبلها كله وليس فقط مصير رئيسها القادم على اختياره الطريق المعاكس لذلك الذى أصر مرسى على السير فيه. ويبدأ هذا الطريق بتأسيس جمهورية جديدة ديمقراطية تقوم على مؤسسات قوية، وتعددية حقيقية، وشفافية كاشفة لأى اختلال حتى يمكن معالجته مبكراً، ومشاركة شعبية تتيح استثمار طاقات بشرية هائلة مهددة أو مكبوتة.

فما أشد حاجة مصر إلى مثل هذه الجمهورية التى يعرف رئيسها أنه يحكم مصر فى عصر ثورة معلومات واتصالات لا ترحم الدول الفاشلة، ولكنها توفر المقومات اللازمة للاستفادة من الفرص التى تتيحها هذه الثورة.